



**Cole M. Bunzel.- Wahhābism: The History of a Militant Islamic Movement (Princeton NI: Princeton University Press, 2023), 408p.**

تزايد الاهتمام بالحركات السلفية منذ العقد الأول من الألفية الثالثة، فتنامت الدراسات الأكاديمية بلغات متعددة وتخصصات مختلفة ومقاربات متقاطعة، لتفكيك بنية الفكر الأصولي في الوطن العربي، بُغية فهم أسسه ومبادئه وأهدافه ودرجات تحركه وموقفه من الغرب ومن مستجدات العصر، كما انصب الاهتمام على رجالات هذا الفكر ومنظريه، لاستيعاب السياقات والبنى المتحركة في صياغة النظريات والحركات الإسلامية التي اختلف تصنيفها من متطرفة وجهادية إلى معتدلة. فضلا عن ذلك، تم ربط هذه الحركات الأصولية وحضورها داخل المجتمع

بمدى تحكمها في سياسات الدول وبقوة تأثيرها الإقليمي والدولي وحجم أتباعها ومريديها. فكثيرا ما تردد الحديث في الأوساط الأكاديمية الغربية، عن تنامي الإسلام المتطرف، وعن تقييده الفكري. والكتاب الذي بين أيدينا، - الصادر في لغته الإنجليزية تحت عنوان يمكن تعريبه هكذا: **الوهابية تاريخ حركة إسلامية متشددة** - يندرج ضمن الإطار السابق بسطه، فهو لمؤلفه كول إم بونز (Cole M. Bunzel)، المؤرخ والباحث في شؤون الشرق الأوسط المعاصر، والمتخصص في تاريخ شبه الجزيرة العربية والحركات الإسلامية الحديثة، وقد سبق له أن نشر دراسات كثيرة عن الحركات الجهادية السنية، فتوج أبحاثه هذه بإصدار هذا الكتاب (سنة 2023) عن منشورات جامعة برينستون. وجاء العمل النهائي في طبعة أنيقة، تتجاوز عتبة 409 صفحة، مقسمة إلى سبعة فصول مسبقة بتمهيد، ومذيلة بخاتمة تضمنت مجموعة من الاستنتاجات والخلاصات. ويحاول هذا التقديم الجمع بين تفكيك بنية الكتاب ومضامينه ومناقشة القضايا المنهجية والمعرفية المطروحة في ثناياه.

تسعى الأطروحة الأساس للكتاب إلى إبراز مسار الحركة الوهابية منذ ظهورها في أربعينيات القرن الثامن عشر، إلى غاية عشرينيات القرن الماضي، أي الحقبة الزمنية التي اتسمت فيها الحركة بالشدد، ويحلل فكرها وعلاقتها بتطور المملكة العربية السعودية على مراحل مختلفة، ثم البحث في الامتدادات الراهنة لهذه الحركة، ليظهر مدى استمرار إرثها في إيديولوجيات ما سمي بتنظيم القاعدة والدولة الإسلامية. ويقدم الباحث إجابات عن جملة من القضايا، مثل العلاقة بين فكر محمد بن عبد الوهاب المؤسس للحركة الوهابية وفكر ابن تيمية وابن قيم الجوزية، والسجلات الفكرية التي خاضها ابن عبد الوهاب مع مجايبيه، ونقط التقاء أفكار الحركة مع بعض الحركات الأصولية في القرن الثامن عشر، خاصة في الدعوة إلى تخليص الإسلام من عوائد الشرك، مثل زيارة الأضرحة والقبور وتقديس الأولياء، والرجوع بالإسلام إلى منابعه الصحيحة.

ومن المعلوم أن حقبة ظهور ابن عبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، تزامنت مع ظهور مجموعة من الدعاة الآخرين في عدة مناطق، مثل ظهور كل من شاه ولي الله في الهند (توفي 1762/1176م)، وابن الأمير الصنعاني (توفي 1769/1182م) وابن علي الشوكاني (توفي 1839/1250م) في اليمن، وعثمان دان فوديو في نيجيريا (توفي 1817/1232م)، ومحمد علي السنوسي في الجزائر (توفي 1859/1276م)، وآخرون ممن حملوا شعار محاربة البدع وتصحيح الممارسات الدينية، مع البحث في أسس تحلف المجتمعات الإسلامية مقارنة مع غيرها من الأمم.

يستهل الباحث منجزه العلمي بتوضيح هدفه من التأليف برمته، وتحديد الإطار العام من خلال دراسة حياة ابن عبد الوهاب وتناول بداياته الأولى وسجلاته ومواقف مخالفيه من فكره. كما اعتمد على مخطوطات دفيئة ونادرة، حصل عليها من الهند والعراق ومن أماكن أخرى، إذ اعتبرها مصدرا استثنائيا لم يسبق استغلاله لدراسة

الوهابية المبكرة، إضافة إلى مجموعة من الأبحاث، أجراها في المملكة العربية السعودية، كما استفاد من زيارته العلمية المتكررة لمكتبة عائلة صالح بن سالم آل البنيان، بما تحتويه من مخطوطات غير معروفة، ومؤسسة الملك عبد العزيز للبحوث والمحفوظات، ومكتبة الملك سلمان في جامعة الملك سعود، ومكتبة الملك فهد الوطنية، ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. مما ساعد الباحث على إعادة بناء الجدل الفكري بين ابن عبد الوهاب ومعارضيه، ثم متابعة مسار حركته وتأثيرها في محيطها وفي علاقاتها بمؤسسات المملكة العربية السعودية.

وإذا كان المؤرخ الأمريكي مارشال هودجسون، قد اعتبر بأن الوهابية ألهمت العديد من الحركات الأخرى، حين تعلم الكثير من الحجاج ممن أتوا إلى شبه الجزيرة العربية أثناء صعودها مبادئها، وكانوا متحمسين لنضالها، فخلص إلى أن ابن عبد الوهاب كان جزءاً من شبكة من علماء الإصلاح، فإن صاحب هذا الكتاب يؤكد على أن الحركة الوهابية قد ظهرت في بيئة قاسية، لكن لا يبدو أنها مستوحاة من أي حركة معاصرة أخرى في الإسلام، وهذا ما سعى إلى تبيانها على امتداد صفحات الكتاب.

والواضح أن سياق بروز الوهابية قد تميز بجملة من الخصائص، ومنها غياب الدولة بشكلها الحديث، واستمرار خضوع هذه المناطق للإمبراطورية العثمانية؛ وطغيان النظام البدوي والقبلي، وبالتالي تفكك أوصال المجتمع وطغيان الحروب والنزاعات الداخلية. وهذا بالإضافة إلى انتشار ممارسة تقديس الأضرحة والموتى، وانتشار البدع، والابتعاد عن تعاليم الدين الصحيحة؛ فضلاً عن ضعف الاقتصاد المحلي، وطغيان الانحطاط على مستوى التطور الطويل الأمد للحضارة الإسلامية؛ ثم التقاء مصالح الأمير ابن سعود الباحث عن الدعم الديني، مع رؤية محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية والباحث بدوره عن دعم مادي وعسكري، وهو ما شكل أرضية للتحالف بين الطرفين، خاصة في بدايات الدولة السعودية الأولى (حوالي 1157-1233/1744-1818م) والدعوة الوهابية. ولهذا تبرز أهمية دراسة الحركة الوهابية وتطورها في فهم تحركات المملكة العربية السعودية ودورها وموافقها اليوم تجاه العديد من القضايا المرتبطة بالحركات الإسلامية. كما يمكن من استيعاب تحول الوهابية من حركة متشددة إلى حركة أقل تشدداً، سرعان ما أصبحت تميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال.

ويبرز الباحث اختلافات الحركة الوهابية عن الحركات الإسلامية المعاصرة لها أو التي ظهرت بعدها - ويقر أنها مختلفة عنها - لكنها تشترك في أمرين اثنين؛ هما إدانة عبادة الأولياء وتقديسهم، وتجلي النقطة الثانية في تبني أفكار ابن تيمية بشأن التوحيد والشرك. وكان ابن عبد الوهاب يرى أن المترددين على زيارة أضرحة الأولياء والصلحاء، لا يختلفون عن المشركين الذين كانوا يعبدون الآلهة الوثنية القديمة. لكن المؤلف يُبهننا إلى أنه لا ينبغي النظر إلى الوهابية، على أنها فريدة من نوعها، حيث لا يوجد لديها أي شيء مشترك على الإطلاق مع الحركات الأخرى في الحقبة الحديثة المبكرة. إذ لم تكن الوهابية بالضرورة مصدر إلهام لهذه الحركات؛ ولكن على أقل تقدير، انتمت إلى مجموعة أوسع من الحركات التي اعتمدت على أفكار ابن تيمية وابن القيم بطرق مماثلة. وهو ما يختلف فيه مع عدد من الباحثين أمثال هودجستون. ويشير إلى أن نهج الوهابيين في التكفير والجهاد كان فريداً من نوعه؛ فقد كانوا متحمسين في محاربة المسلمين الذين اعتبروا بأنهم زاغوا عن جادة الدين الصحيح. ولكن لا ينبغي لنا أن نتجاهل أوجه التشابه بين الوهابية وغيرها من الحركات الإسلامية المعاصرة. إن وجود هذه الصلات، يساعد في تفسير كيفية تمكن الأجيال اللاحقة من الوهابيين، ابتداء من القرن التاسع عشر، من تكوين علاقات وثيقة مع العلماء في أماكن مثل الهند والعراق.

لتحقيق ذلك، تنبه الباحث إلى أن دراسة مذهب ابن عبد الوهاب دون تفكيك علاقته بالفكر الديني لابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية أمر لا يستقيم، فاعتبر ذلك من القضايا التي لم تتحقق دراستها بدقة. ولهذا خصص فصلاً لدراسة الاختلافات بين الفكرين الوهابي والتيمي، بالإضافة إلى أوجه التشابه بينهما، فيبرز السمات المميزة لفكر ابن تيمية التي لعبت دوراً في بناء النسق الإيديولوجي للوهابية. ويقدم المكونات الأساسية للمذهب الوهابي، مثل التوحيد والتكفير والولاء والبراء والجهاد.

ويؤكد الباحث أن موضوع الكتاب هو الوهابية في مراحلها المبكرة، وهي الحقبة التي اتسمت فيها بالتشدد والتطرف، ويبرز كيفية تعايش الحركة مع التطور السياسي للمملكة العربية السعودية، إذ لم تظل بالحدة وبالغنف ذاته الذي كانت عليه منذ أيام المؤسس، حيث ركزت على عبادة الله الصحيحة وفقاً للتوحيد وإظهار الكراهية والعداوة للمشركين ولغير المنتمين للوهابية. أما في عهد الدولة السعودية الثالثة، وخاصة بعد عام 1932/1351م، فقد بدأ تشدد الحركة الوهابية في الانحسار. إذ أقنع الملك عبد العزيز آل سعود، العلماء الوهابيين بالتخفيف من حدة التطرف، بدرجات تتلاءم مع بناء دولة حديثة، وقد نجح في ذلك إلى حد كبير. وبتوجيه منه، خففوا تدريجياً من مواقفهم العدائية. ويوضح أنه نظرياً لم تتغير المبادئ العامة للوهابية، ولكن لم يتم الالتزام بها عملياً بالقوة ذاتها التي كانت عليها من قبل. ولم يعد يُنظر إلى الدول الإسلامية المجاورة مثل مصر والعراق على أنها من أراضي الشرك الواجب غزوها أو تحببها. وبمرور الوقت، تحققت تدجين الوهابية، فتطورت إلى حركة وسطية تُعلم العبادة الصحيحة، وتضبط المجتمع السعودي، وتؤكد على طاعة الحاكم.

لا يحلل هذا الكتاب تطور الوهابية "الحديثة"، بل يركز على الوهابية كما كانت قبل ترويضها وقبل استقطابها الأخير من قِبَل الدولة السعودية الحديثة. ويهدف إلى التوضيح بأن الوهابية منذ ظهورها عام 1153هـ/1741م، إلى ما يقرب من سنة 1932/1351م قدمت شكلاً متشددًا للحركات الإسلامية، وهو صنف تأسس على روح راديكالية من الإقصاء والمواجهة، استمرت لما يقرب من مائتي عام. ولم يتوقف كبار العلماء الوهابيين خلال هذه الحقبة عن التأكيد على واجب إظهار الكراهية والعداء لأولئك المسلمين الذين يعتبرونهم مشركين. وكان إصرارهم على هذا الواجب، هو الهاجس والمحرك لتصرفاتهم ومواقفهم.

وتكمن إحدى معالم قوة الكتاب منهجياً، في الجمع بين البحث البيوغرافي، من خلال البحث في سيرة سليمان بن سحمان (توفي 1349هـ/1930م) أحد أتباع ابن عبد الوهاب، ومن أبرز العلماء الوهابيين البارزين في جيله وأغزرهم إنتاجاً في تاريخ الحركة الوهابية، حيث سلط إنتاجه الضوء على المجتمع الوهابي خلال مرحلة تراجع القوة السياسية السعودية في أواخر القرن التاسع عشر، ثم عودة ظهورها لاحقاً في أوائل القرن العشرين. إذ أعلن ابن سحمان تكفير الإمبراطورية العثمانية على أساس تبنيتها لممارسات غير إسلامية، وعارض سفر الوهابيين إلى أي منطقة خارج السيطرة الوهابية، وشدد على أن المسلمين الحقيقيين يظلون ملزمين بإظهار الكراهية والعداء للمشركين بل ومحاربتهم. وكانت الوهابية، في هذه المرحلة، حركة إسلامية متطرفة، فبرز ابن سحمان متحدثاً رسمياً باسمها ومدافعاً عنها. ويشير الباحث، إلى أنه على الرغم من مكانته ضمن النسق الفكري الوهابي، إلا أنه لم يُكتب عنه كثيراً باللغة الإنجليزية. لكن المشكلة في كتابة سيرة ابن سحمان هي أن آرائه الدينية، ليست جديدة تماماً؛ إذ لم تكن لهجته النارية وشغفه والأفكار التي عبر عنها أصلية، بل تعتبر مجرد امتداد لأفكار المؤسس الأول، لذا يمكن التعامل مع كتابات ابن سحمان بوصفها تمثل آخر تعبير عن التراث الوهابي المتشدد.

ولم يكن من الممكن الحديث عن شخصية ابن سحمان، دون التعامل أولاً مع التقليد الوهابي الذي دافع عنه بشدة. وبناء على ذلك، اتسع نطاق البحث ليشمل بيوغرافية ابن عبد الوهاب ثم الحقبة الوهابية المبكرة التي استغرقت مدتها قرنين من الزمن، كما أبرز حياة العلماء الوهابيين وبيئاتهم وأدبياتهم وجهودهم في إحياء روح الوهابية المتشددة خلال عهد الدولة السعودية الثانية (1238-1305/1823-1887م)، مع التركيز بصفة خاصة على الحقبة المعروفة بالاحتلال المصري الثاني (1253-1259/1837-1843م)؛ ومرحلة الصراع العسكري في عامي (1282-1351/1865-1887م). ويتناول تأثير الأوضاع السياسية التي شهدتها منطقة الحجاز على مسار الحركة الوهابية.

ويقدم الكتاب نموذجاً للجمع بين البيوغرافيا والتاريخ وتاريخ الأفكار والحركات الإسلامية وتحليل الخطاب، رغم أن صاحبه يعتبر مؤرخاً في المقام الأول، إلا أنه استعان بمناهج متقاطعة للكتابة عن تاريخ الحركة الوهابية في

صيغتها الأولى وعلاقتها بفكر ابن تيمية وابن قيم الجوزية، ولهذا رصد في ظل هذه المرحلة، مسألة اقتتان الحركة الوهابية بالحركة السياسية السعودية.

وانتهى الباحث إلى عدة خلاصات؛ أولها اهتمام ابن عبد الوهاب بالأوضاع السياسية بشبه الجزيرة العربية. ويشبه تطور حركته بتطور الإسلام المبكر، حين بدأ دون أي هدف سياسي واضح ولكنه تحول تدريجياً إلى حركة تجمع بين الدين والسياسة. والأكثر من ذلك، استحضر ورثة ابن عبد الوهاب في ذروة الدولة السعودية الأولى النظام السياسي الإسلامي المبكر. والخلاصة الثانية، هي التأكيد على جهود الملك عبد العزيز آل سعود في ترويض الحركة الوهابية وتعزيز دمجها في التيار الإسلامي المعتدل. إذ استخدم الملك الوهابية المتشددة إبان سنوات بناء المملكة العربية السعودية، لكنه حاصرها بعد ذلك، في سعيه لتأمين مكانة المملكة ضمن النظام الإقليمي الإسلامي والدولي، رغم رفض العديد من العلماء الوهابيين لهذا التوجه، بيد أنه تمكن من الحفاظ على ولاء العلماء أثناء تحديث الدولة، ممهداً بذلك الطريق لتقارب الوهابيين والعالم الإسلامي. والخلاصة الثالثة، هي عدم تمهيش الملك عبد العزيز الوهابية بصفة كاملة، إذ مقابل دعم النظام الجديد، حصل علماءها على مساندة الدولة وانخراطها في تعليم العقيدة الوهابية ونشر مبادئها، كما تم منحهم سلطة الإشراف على مؤسسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تعد رمزاً لسلطة المؤسسة الدينية في المجتمع السعودي. وتعني حضور العلماء الوهابيين في هيكل سلطة الدولة. وانتهى في الخلاصة الرابعة، إلى أن المملكة العربية السعودية قد عملت بدءاً من سبعينيات وخمسينيات القرن العشرين، على تنظيم المشهد الديني، إذ تم وضع نظام تعليمي مركزي جديد على غرار جامعة الأزهر في مصر، وتم إنشاء المعاهد التعليمية في جميع أنحاء البلاد. وفي عام 1374هـ/1955م، تم تشكيل هيئة الإفتاء وإدارة الشؤون الدينية. وقد سبق إنشاء لجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (التي اندمجت فيما بعد في لجنة واحدة)، وبذلك تأتت توجيه طاقات العلماء الوهابيين إلى إدارة هذه المؤسسات الدينية ورعايتها. وهي العملية التي اكتسبوا بواسطتها ثقلاً مؤسساتياً ضمن إطار الدولة السعودية الحديثة. أما الخلاصة ما قبل الأخيرة، فقد تمثلت في تراجع حماس الوهابية وموافقها المتشددة من بعض الممارسات، كما تراجعت حدة الانتقادات الموجهة للحركة على مدى العقود التالية. والخلاصة الأخيرة، هي تأكيد الباحث على أن الجماعات الجهادية تبنت التقليد الوهابي المتشدد باعتباره تقليداً خاصاً بها، حيث رأت فيه تجسيداً للعقيدة الإسلامية السليمة مع تركيزها على أهمية النشاط العسكري. وبهذا، أصبحت الوهابية العمود الفقري الإيديولوجي للحركة الجهادية، ومن الأمثلة على ذلك حضور النصوص الوهابية بكثرة على المواقع الجهادية، مع اعتبار الوهابية اللاحقة انحرافاً وخيانة للأصل المتطرف.

ختاماً فالكتاب يقدم رؤية جديدة/ قديمة لتاريخ الوهابية وعقيدتها، فأبانت هذه الرؤية عن المجهود الفكري والتوثيقي الذي نصح به الباحث، في توضيح مسار الحركة الوهابية المتشددة، وكيف تساوقت مع بناء الدولة الحديثة في المملكة العربية السعودية، عندما استخدمت هذه الأخيرة المثل الوهابية لتعزيز شرعيتها. لكن في الوقت الحالي، شهدت الوهابية تراجعاً في قوتها نتيجة للإجراءات الإصلاحية التي اتخذها ولي العهد الأمير محمد بن سلمان منذ عام 2016م/1437هـ، في محاولة لتغيير الأصول الوهابية للدولة، مما أثار استياء المحافظين. وبالمقابل بزغت الوهابية المتشددة من جديد في صورة سلفية جهادية، سعت المملكة السعودية إلى محاربتها.

محمد مزيان

جامعة ابن طفيل، القنيطرة.  
المغرب